

العنوان:	أهمية الثقافة : كيف تشكل القيم التقدم الإنساني
المصدر:	مجلة العلوم الاجتماعية - الكويت
المؤلف الرئيسي:	هاريسون، لورانس
مؤلفين آخرين:	هنتنغتون، صموئيل، فهيم، حسين محمد(م. مشارك، عارض)
المجلد/العدد:	مج 30, ع 3
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2002
الصفحات:	629 - 623
رقم MD:	26553
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	ACI, EduSearch
مواضيع:	الإناث، الثقافة، التنمية الاقتصادية، التنمية السياسية، الأقليات، الذكور، آسيا، الديمقراطية، النظم الاجتماعية، القيم الاجتماعية، الخدمات الاجتماعية، حقوق الانسان، حقوق المرأة، عرض وتحليل الكتب
رابط:	<a href="http://search.mandumah.com/Record/26553">http://search.mandumah.com/Record/26553</a>

## اجتماع

أهمية الثقافة: كيف تُشكل القيم التقدم الإنساني؟

*Culture Matters: How Values Shape Human Progress?*

تأليف: لورانس هاريسون Lawrence Harrison

صمويل هنتنجتون Samuel Huntington

الناشر: Basic Books، نيويورك، الولايات المتحدة الأمريكية، مايو 2000.

مراجعة: حسين محمد فهيم\*

### ماهية الكتاب ومحتواه

صدر هذا الكتاب في مايو عام 2000 متضمناً الأعمال التي تم تقديمها ومناقشتها في مؤتمر عن القيم الثقافية والتقدم الإنساني. وقد قام بتنظيم هذا المؤتمر «الأكاديمية الأمريكية للآداب والعلوم» بمدينة كامبريدج، بولاية ماساتشوستس الأمريكية. وقد كان لهذا المؤتمر والأوراق المقدمة به والمناقشات التي دارت حول موضوعه صدى أكاديمي وإعلامي كبير لا لأهمية الموضوع فحسب، وإنما لاشتراك لفيف متعدد الجنسيات من كبار المفكرين والباحثين المتخصصين في العلوم الاجتماعية والإنسانيات. هذا إلى جانب إسهام نخبة من الكتاب المرموقين في مجال إدارة الأعمال ورسم السياسات الاجتماعية. كان من بين الشخصيات المعروفة مثلاً فرانسيس فوكوياما Francis Fukuyama مؤلف كتاب «نهاية التاريخ» الذي نال شهرة كبيرة ونقداً لا يزال مستمراً، وتو يمينج Tu Weiming أستاذ التاريخ والفلسفة بجامعة هارفارد. نذكر أيضاً باربرا كروسويت Barbara Crosswette الصحفية المتخصصة في شؤون الأمم المتحدة للتنمية، وريتشارد شويدار Richard Shewder أستاذ الأنثروبولوجيا المعروف في جامعة شيكاغو الأمريكية.

\* أستاذ الأنثروبولوجيا الثقافية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة.

يحتوي هذا الكتاب على 348 صفحة متضمناً اثنين وعشرين فصلاً مدرجة تحت سبعة موضوعات رئيسة على النحو التالي: 1 - الثقافة والتنمية الاقتصادية، 2 - الثقافة والتنمية السياسية، 3 - الحوار الأنثروبولوجي، 4 - الثقافة والنوع (الذكور والإناث)، 5 - الثقافة والأقليات، 6 - محنة آسيا، 7 - حوافز التغيير. وإلى جانب هذه الفصول قدم المحرران في بداية الكتاب وجهة نظرهما حول موضوع الكتاب ومنطلقه النظري والعملية، كما حرصا على تضمين فصول الكتاب المناقشات والتعقيبات التي دارت حول كل فصل. إضافة إلى ذلك وضع المحرران في نهاية الكتاب الإحالات والمراجع الخاصة بكل فصل، وكذلك وضعاً فهرساً بالموضوعات والأعلام.

وعن محرري الكتاب نذكر أن صمويل هنتنجتن معروف ومن دون شك لدى المطلعين على المستجدات في الفكر العالمي، وربما يكون قد تسنى لهم الاطلاع على كتابه «صدام الحضارات» الذي لا يزال يثير كثيراً من التعليقات والتحليلات النقدية في دوائر الفكر الغربية والعربية على حد سواء (صدرت ترجمة عربية للكتاب في سلسلة إصدارات مجلة سطور القاهرية، 1999). أما المحرر الثاني فهو لورانس هاريسن الخبير باكاديمية جامعة هارفارد للشئون الدولية، وهو معروف بغزارة كتاباته وأحدثها كتاب بعنوان Who Prospers? (من الذي يزدهر اقتصادياً؟).

### قضية الكتاب المحورية

مع بداية ألفية وقرن جديدين لا يزال العالم منقسماً بين أقلية ثرية - أو على الأقل ميسورة الحال - وأكثرية فقيرة أو معدمة أحياناً، ولا يزال هذا العالم منقسماً أيضاً بين شعوب حرة وأخرى مقهورة. ليس هذا فحسب، فالملاحظ أنه حتى في بعض الدول التي تتفاخر بنظمها الديمقراطية والاقتصادية توجد فجوة كبيرة في فرص الكسب ونوعية الحياة بين الصفوة الثرية والعامّة الكادحة، ناهيك عن الصور المتعددة للاضطهاد العنصري الذي تلقاه الأقليات أو يتعرض له الملونون من البشر داخل مجتمعات هذه الدول.

من هذا المنطلق يتناول الكتاب قضية التقدم والتخلف بين الشعوب، وي طرح سؤالاً رئيساً وهو: لماذا ينجح بعض الشعوب في تحقيق التقدم والازدهار في حين تظل الشعوب الأخرى متخلفة وعاجزة عن اللحاق بالركب التقدمي؟

وفي محاولة للإجابة عن هذا السؤال اتفق المشاركون في المؤتمر المشار إليه سابقاً على تأكيد أهمية الدور الذي تؤديه ثقافات الشعوب في السعي الحثيث

والإيقاع السريع نحو التقدم أو السير المتعثر والبطء في طريق التنمية، بل إلى حد الرغبة أحياناً في تدعيم حالة التخلف وإجهاض الدعوة إلى التقدم. ومع التأكيد على دور الثقافة المهم جداً في مسار التقدم أو التخلف، فإن هناك من دون شك عوامل أخرى متداخلة يتصل بعضها غالباً بالجغرافيا (الموقع الجغرافي والموارد الطبيعية مثلاً) وبالتاريخ أيضاً (الاحتلال الأجنبي، والحروب، والثورات الأيديولوجية مثلاً). وعلى الرغم من تأكيد محور أهمية الثقافة ودلالاتها في تفسير ظاهرة التقدم مقابل التخلف لدى شعوب العالم المعاصر، فإن ذلك لا يعني مطلقاً إلغاء قيمة نظريات الاستعمار والتبعية والعنصرية التي قد تجد صدى وقبولاً لدى بعض الباحثين لتشخيص التخلف وتفسيره عند بعض الشعوب. ومع ذلك يطرح هذا الكتاب فكرة أنه لكي نفهم عالم اليوم فهماً جيداً ومن منطلق الثوابت لا المتغيرات، فلا بد لنا أن ننطلق من مفهوم «الثقافة» ولكن ليس من حيث مضمونه الإثنوجرافي الواسع الذي يحتوي على كل شيء ينتجه الإنسان لينظم به حياته وإنما يكون مدخلنا الرئيس مرتكزاً إلى القيم الثقافية للشعوب ونظرتهم الإجمالية إلى الحياة وبخاصة النظرة إلى الذات وإلى الآخر، وما قد يكون لهذه القيم وتلك النظرة من تأثيرات إيجابية أو سلبية تجاه فكرة التقدم والسعي لتحقيقه.

هذا ويُرد اقتصار هذا المدخل الثقافي على القيم في معالجة موضوع التقدم والتخلف، وليس الأخذ بالمفهوم الموسع للثقافة الذي يستخدمه الأنثروبولوجيون، إلى وجهة نظر محرري الكتاب بأن «كل شيء لا يفسر شيئاً». هذا وتستند أيضاً فكرة دراسة قيم ثقافات الشعوب إلى فرض أن تحقيق الرخاء الاقتصادي والديمقراطية السياسية والعدالة الاجتماعية لا يتم إلا بامتلاك الشعوب للقيم الثقافية التي تعمل إيجابياً على ترسيخ هذه المفاهيم وتحويلها إلى سياسات وسلوكيات فعلية. ففي عالم اليوم الذي يشكله (بل يحكمه في حقيقة الأمر) الاقتصاد والتقانة فإن تفسير التباين الحضاري من ناحية مستويات التقدم أو التخلف بين الشعوب يعزى أساساً إلى الثقافة عامة وما يتضمنه خاصة من قيم وسياسات تعليمية واتجاهات تربوية في الأسرة والمجتمع على حد سواء.

وإذا كان الأمر كذلك فإن السؤال لا يزال في رأي دانيال مانجيل Danial Manguelle (رئيس جمعية الدراسات الأفريقية في الكاميرون): ما تلك القيم والسياسات التي يتعين على البلاد النامية تبنيها لكي تصبح متقدمة؟ وهذا فعلاً ما حاول معظم فصول الكتاب معالجته. وفي هذا السياق يؤكد لورانس هاريسون أحد

محرري الكتاب أن الهدف ليس تشويه سمعة أي دولة أو الإساءة إلى أي شعب، وإنما تقديم فهم أكثر واقعية يُوضح لنا أسباب تفوق بعض المجتمعات الإنسانية على غيرها لا في المجال الاقتصادي فحسب وإنما في نظم الحكم والعدالة الاجتماعية. وبهذا الفهم تستطيع الدول الراغبة في التقدم أن تُعدل من نُظم قيمها الثقافية وأن تُغير من مواقفها التقليدية تجاه شئون الحياة وإدارة المجتمع.

### المدخل الثقافي المقترح

يتبنى الكاتب مقولة مفادها إن ثقافة أي شعب وارتباطها بإعاقة التنمية أو بدفعها إلى الأمام يجب أن تُدرس بعناية وفق إطار نظري ومنهجي جديد مخالف لما كان مُتبَعاً من قبل. فلقد سبق خلال العقود الثلاثة الماضية دراسة تأثيرات الثقافة في عمليات التنمية إيجابياً أو سلبياً، إلا أنه لم يتبلور بعد الإطار النظري المتكامل والمنهج الأكثر تحديداً لنصل بهما إلى فهم أفضل وتفسير أكثر واقعية لرسم سياسات فاعلة تتحقق معها أهداف التنمية عامة والارتقاء بنوعية الحياة خاصة.

ولكي نجيب عن السؤال الذي شكل المحور الرئيس للكتاب وهو: كيف تؤدي ثقافة أي شعب دوراً مهماً في تقدمه أو تخلفه، لا بد لنا من أن نركز مدخلنا الثقافي الجديد على القيم، والمعتقدات السائدة، والتوجهات السلوكية، والتصورات الباطنة، ومواقف السلطة والأفراد تجاه قضايا الحياة الإنسانية. إن هذه العناصر كلها أو بعضها تكشف لنا من دون شك عن حوافز التقدم أو عواقبه، بقدر أكثر وضوحاً وتحديداً فيما لو استخدمنا مدخلاً ثقافياً مُوسعاً أو فضفاضاً، أو اقتصرنا على رد التخلف إلى النظريات الخاصة بالاستعمار الخارجي والاعتماد على الآخر.

لقد أخفقت الحكومات، ومعها الدارسون والمخططون وصناع القرار والمؤسسات الدولية المانحة على حد سواء في تقدير قوة دور ثقافة الشعوب وبخاصة فيما تتضمنه من قيم في تدمير جهودهم التنموية أو في إمكان العمل على تعزيزها. إن التعامل مع الثقافة بصفة عامة ومجموعة القيم بصفة خاصة وسبر أغوارها وتفهم كيانها المترابط وعناصرهما المتداخلة أمر صعب للغاية لما يكتنفه من عواطف ورؤى سياسية متعددة، ناهيك بصعوبة الوقوف على شبكة التداخلات أو التعارضات بين السياسات والنظم الاجتماعية والتنموية الاقتصادية، لذلك يبرز الكتاب أهمية ضرورة وضع برنامج بحثي أكاديمي تطبيقي شمولي. ويتعين على هذا البحث الأخذ في الاعتبار أن تغيير القيم والاتجاهات أو تعديلها (value and attitude)

(change) أمر جوهري لا بد من تضمينه سياسات التنمية وتفعيلها في البلاد النامية. وتشكل هذه الدراسة المقترحة ضرورة ملحة في الوقت الحاضر، ويجب أن تتضمن ستة عناصر أو موضوعات دراسية رئيسة على النحو التالي:

- 1 - التعرف إلى ماهية القيم والاتجاهات التي تحفز التقدم وتلك التي تعوقه،
- 2 - طبيعة العلاقة بين الثقافة والبيئة والتنمية، 3 - العلاقات القائمة بين القيم والاتجاهات، والسياسات والنظم المجتمعية، 4 - وسائل تلقين القيم وغرسها والاتجاهات والمؤسسات المنوط بها ذلك، 5 - تطوير وسائل قياس الاتجاهات وقيم الثبات والتغيير، 6 - التعرف إلى الإمكانيات المجتمعية المشجعة لإحداث التغيير الثقافي.

إن هذا الجانب الأكاديمي للبحث سيكون له من دون شك جانب تطبيقي من حيث وضع استراتيجية فاعلة تهدف في النهاية إلى تحقيق الغرض المنشود، وهو تعديل النظام القيمي أو تغييره والاتجاهات السائدة من أجل تشكيل نظام جديد يُحفز التنمية والتقدم الإنساني. هذا من ناحية المشروع البحثي، أما بالنسبة للنموذج الواجب الاقتداء به فهو نموذج مجموعة القيم الأمريكية المرتبطة بالاقتصاد والديمقراطية بصفة خاصة، باعتبار أن النظام الأمريكي يشكل حالياً النموذج الأمثل عالمياً.

### تعليق

أبدأ التعليق بما انتهت به الفقرة السابقة وأتساءل: لماذا يُنظر إلى الثقافة الأمريكية باعتبارها الأكثر تقدماً عالمياً وأنها النموذج الأمثل الواجب الاقتداء به بغية اللحاق بركب التقدم، في حين أن المجتمع الأمريكي يعاني من معدلات عالية جداً من الانتحار والجريمة والاعتصاب، كما تعاني الأقليات والجماعات الاثنية فيه - ولو بنسب متفاوتة - من أحوال اقتصادية سيئة وخدمات منخفضة واضطهاد وتفرقة عنصرية في فرص العمل والأجور والمعاملات؟

تأتي الإجابة في هذا الكتاب ومفادها أن التركيز يجب أن يكون على الجانبين الاقتصادي والتقني بوصفهما معيارين رئيسين للتقدم. ذلك في الوقت الذي أيقن الفكر العالمي فيه أن التقدم محصلة أمور متعددة ومقاييس متنوعة تتعلق مثلاً بنظم الحكم، والتعليم، والبيئة، والخدمات الاجتماعية، وحقوق الإنسان، ومكانة المرأة. فليس الازدهار الاقتصادي أو التفوق التقني وحدهما يصنعان التفوق الإنساني.

فالدولة المتقدمة هي التي تحرص على أن تُقدم لجميع مواطنيها الحرية والشراكة السياسية جنباً إلى جنب مع تكافؤ الفرص لمستوى معيشي لائق اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً.

إن عد أمريكا النموذج الأمثل للتقدم الإنساني في هذا الكتاب أمر يجانبه الصواب ويعكس تحيزاً سياسياً واضحاً، كما يشكل امتداداً وترسيخاً لأفكار سبق طرحها من قبل في إطار مقولات «نهاية التاريخ» و«صدام الحضارات». وعلى الرغم من أهمية تعرّف القيم الثقافية للشعوب الإنسانية ودراسة تأثيراتها في عمليات التنمية والتقدم الإنساني - وهو أمر ليس بالجديد مطلقاً - فإن ظاهر هذا الكتاب وإن بدا أكاديمياً إلا أنه في باطنه أطروحة سياسية تهدف إلى عولمة النظام والقيم الأمريكية. فالمدخل إلى التقدم - وفق هذه الأطروحة - يقتضي من الدول الراغبة فيه (أي الدول النامية) أن تغير تماماً أو تعدل على الأقل كل أو بعض قيمها الثقافية واتجاهاتها الفكرية والتربوية ونظمها السياسية وفق النموذج الأمريكي.

ومن المهم بمكان أن نذكر - في هذا المقام - أن الأطروحات النظرية الغربية والكتابات الأكاديمية غالباً ما يكون لهما تأثيرهما القوي في أفكار الساسة ومتخذي القرارات على مستوى الدولة، سواء فيما يختص بالأمور الداخلية أو سياسات العلاقات الخارجية. ويجد المطلع على أحوال عالم اليوم والمتتبع لأحداثه المتعاقبة أن ذلك حادث فعلاً في الولايات المتحدة الأمريكية في تضخم «الأنا الأمريكي» تجاه العالم من حيث إنه القوة الأوحده عالمياً وفي بلورة سياسات الهيمنة والتدخل. إن خطورة مسألة تغيير قيم ثقافات البلاد النامية واتجاهاتها أو تعديلها - بما يخدم المصالح الأمريكية في واقع الأمر - تكمن في تجريد تلك الثقافات من جوهرها وتهميش خصوصياتها وتدمير هويتها في نهاية الأمر.

وبصدد مسألة تغيير القيم أو تعديلها، نطرح سؤال الأفريقي دانيال مانجيل نفسه - والذي سبقت الإشارة إليه - وهو أيّ القيم التي يطلب الغرب من البلاد النامية تغييرها، ولماذا؟ ونتفق أيضاً مع الأنثروبولوجي ريتشارد شويدار، وكان أحد الأصوات القليلة جداً المعارضة لفكرة «التفوق الأمريكي» ولدعوة تغيير قيم الشعوب من أجل التقدم لأن ذلك يعكس في واقع الأمر نظرة عنصرية، كما يوضح فهماً سطحياً للأشياء، إذ إن لكل ثقافة منطقتها وخصوصياتها، وإذا هُمِشا ضاعت هي الأخرى.

وفي كلمة ختامية نجد أن فصول الكتاب قد قدمت معلومات وبيانات مفيدة عن أفريقيا وأمريكا اللاتينية بصفة خاصة من ناحية بعض الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وخصوصاً فيما يتعلق بدور المرأة في التنمية، ومع ذلك فالكتاب الذي يحمل عنوان «أهمية الثقافة» كان يجب أن يهتم على ضوء الدراسات الأكاديمية والخبرة العملية بالحديث والنقاش عن مفهوم الثقافة ومضامينها في عصر العولمة والمعلوماتية، كيف تؤثر في حياة الناس أو تُرشد اختياراتهم وتبلور توجهاتهم نحو قضايا الحياة اليومية. وإلى جانب ذلك، هناك أيضاً قضية التغيير الاجتماعي المخطط، وحدود التدخل ومداه، وهل لا بد من التغيير الجذري لقيمنا لكي نتقدم، أو أن التطوير المرحلي يمكن أن يحل بعض مشكلات التخلف؟

هناك كثير من الأسئلة الأخرى بطبيعة الحال، ولأهمية «موضوع الثقافة» في الوقت الحاضر وعلى المستوى العالمي فكرياً وسياسياً تزخر الصحف بالمقالات والتعليقات، كما تنظم المؤسسات الأكاديمية الندوات والمؤتمرات حول موضوعات تتصل بالثقافة عموماً وحوار الحضارات خصوصاً. ولعل من بين ما اطلعنا عليه أخيراً هو الإعداد لمؤتمر دولي سوف ينظمه مركز Pavis للدراسات والبحوث الثقافية بمدينة أوكسفورد البريطانية في الفترة من 18 إلى 22 سبتمبر عام 2002، وموضوعه «موضع الثقافة في الفكر الاجتماعي».

